

دور الدعاء في بناء الإنسان والمجتمع



سئل الإمام الصادق (ع) عن الله تعالى فقال لسائله: يا عبد الله هل ركبت سفينه قط؟

قال: بلى.

قال له الإمام الصادق (ع): فهل كُسرت بك حيث لا سفينه تنجيك ولا سباحة تغنيك؟

قال: بلى.

قال له الصادق (ع): فهل تعلق قلبك هناك إنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟

قال: بلى.

قال (ع): فذاك الشيء هو الله القادر على الإنجاء حيث لا منجي وعلى الإغاثة حيث لا مغيث.

في هذا الحوار القصير الذي جرى بين الإمام الصادق (ع) وبين أحد السائلين نعرف عدّة أمور هامّة:

أو لاً: نعرف التوجّه الطبيعي إلى الله تعالى. فإنَّ الروح الإنسانية جزء من عالم الوجود، فلو افتقرت لشيء ما بصورة جدية وحقيقة فإنَّ الكون الكبير لا يهمها ولا يدعها لشأنها... إنَّ من يبحث عن شيء كالنجاة من ورطة فإنَّه سيعثر عليه في النهاية. إنَّ الجواب يتوجه للمشكلات، والماء يتوجه للموضع المنخفض لا تبحث عن الماء بل دع نفسك تطمئن فحينئذ سيصل إليك الماء من كلِّ جانب وسوف يصل إليك بصورة أكيدة إذا كنت مضطراً إليه.

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُهْتَمِرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ) (النمل/ 62).

ثانياً: ونعرف من خلال الحوار الممتع الهام بين السائل والإمام أنَّ الذي يحول بين الإنسان وتوجهه إلى ربه وتعلقه به إنما هي الذنوب التي تشكل حاجزاً وحائلاً دون الاتصال الحبيب. يقول القرآن الكريم: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلُمُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأفال/ 24)، ويقول: (بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (المطففين/ 14).

ثالثاً: ونعرف من خلال الحوار بين الصادق (ع) والسائل أنَّ الإنسان ينبغي أن يكون متوجهاً إلى ربه متعلقاً به في العسر واليسير، والشدة والرخاء لأنَّ التوجه نحو الله في حالة الشدة والعسر فقط لا يعد كما لا لاضطرار الإنسان إلى هذا التوجه بعد انقطاع الأسباب.

إنَّ المتوجَّه في هذه الحالة لا يحتاج إلى دعوة خاصة لأنَّه مقهور مجبر مضطرب إلا أنَّ الحالة الثانية حالة التوجه إلى الله والتعلق به في حالة اليسير والرخاء هي التي تعد كما لا للنفس وارتفاع حيث يسمى الإنسان باختياره وينقطع بإرادته من كلِّ الأسباب.

إنَّ الدعاء في كلِّ الأحوال يبعد عن جانب عن افتقار الإنسان وحاجته ويعبر من جانب آخر عن الغنى المطلق لله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَيَّ اللَّهِ هُوَ الْغَنَّى إِنَّهُمْ هُمُ الْحَمَدُ) (فاطر/ 15).

إنَّه أصدق تعبير عن علاقة المحتاج الفقير الضعيف بالغنى القوي العزيز، والاقتراب منه.

"الذي خلقني فهو يهدين والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتنى ويحيينى والذي أطمع أن يغفر لي خطئتي يوم الدين ربُّ هب لي حكماً والحقني بالصالحين وإجعل لي لسان صدق في الآخرين وإجعلني من ورثة جنة النعيم".

ويقول الإمام الصادق (ع): عليكم بالدعاء فإنكم لا تقربون بمثله.

ويقول: الدعاء من العبادة. لأنَّه يقرب من المدعو ويحكم الصلة به والعلقة ليتكامل ويتسامى نحو القمة السامية نحو المطلق المتصف بصفات الكمال والجمال.

إنَّ الإلحاح في الدعاء في الليل والنهار في العسر واليسير في الصغار من الأمور والكبائر يقوى الارتباط بين المخلوق الفاني والخالق الباقي.

يقول الحديث الشريف: "لا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها. إنَّ صاحب الصغار هو صاحب الكبار".

ويقول حديث آخر: "الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض".

إنَّ النتيجة الحتمية والثمرة الطبيعية من الدعاء الصادق المخل بشرطه وشروطه هي الإجابة، يقول القرآن العظيم: (وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر/ 60)، ويقول الحديث الشريف: "ادع ولا تقل إنَّ الأمر قد فرغ منه، إنَّ عند الله منزلة، لا تناول إلا بمسئنته ولو إنَّ عبداً سد فاه ولم يسأل لم يعط شيئاً فأسأل تعط، إنَّه ليس بباب يقع إلا يوشك أن يفتح لصاحبه".

وإذا كانت الإجابة هي الثمرة الطبيعية للدعاء المخلص في سائر الأيام فإنَّ هذه الإجابة تكون يقينية مؤكدة في شهر رمضان بشكل أكثر.

يقول الصادق الأمين في خطبته التاريخية التي استقبل بها الشهر الفضيل المبارك: "ودعاؤكم فيه مستجاب"، ويقول أيضاً: "... ارفعوا إليه أيديكم بالدعاء في أوقات صلاتكم فإذا ها أفضل الساعات ينظر الله عزوجل فيها بالرحمة إلى عباده يجيبهم إذا ناجوه ويلبيهم إذا نادوه ويعطيهم إذا سأله ويستجيب لهم إذا دعوه...).

إن أبواب الجنان في هذا الشهر مفتوحة.. وأبواب النيران مغلقة والشياطين مغلولة وكل الظروف والأجواء مهيأة لاستقبال دعوات الداعين ومناجات القاصدين، فأي عذر لدينا في عدم التوجه إلى رب العالمين ونحن في ضيافته وهو أكرم الأكرمين، وغافر ذنوب المذنبين ومعين الضعفاء والمساكين، وناصر المظلومين.

إن الإنسان الصائم يخرج من الدورة التربوية في الشهر العظيم وجوداً ربانياً جديداً قد انسلخ من ماضيه ببركة هذا الشهر. يقول سيد الساجدين الإمام زين العابدين (ع): "اللهم اسلخنا بانسلاخ هذا الشهر من خطايانا وأخرجننا بخروجه من سيناتنا"، وكيف يصبح الإنسان بعد انسلاخ وزوال الخطايا والسيئات.

إنه يصبح كيوم ولدته أمّه يقول الإمام علي الرضا (ع): "إن شهركم هذا ليس كالشهور، إنّه إذا أقبل إليكم أقبل بالبركة والرحمة وإذا أذبر عنكم أدبر بغران الذنب" "إن شهر رمضان شهر عظيم يصافع الله الحسنات ويمحو فيه السيئات ويرفع فيه الدرجات".

فما أعظم هذه الفرصة الإلهية التي أتيحت لنا بدون استثناء لصناعة أنفسنا وتغييرها على عينه وفي ظلال نهجه الكريم مستثمرين ضيافته لنا في سيد الشهور.

إن استثمار هذه الفرصة الثمينة يكون بتوفير الشروط الضرورية لاستجابة الدعاء، فالسميع العليم يقول لنبيه الكريم: (وَإِذَا سَأَلَكَ عَبْدَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسَتْ حِبْدُوا لِي وَلَيْؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) (البقرة / 186).

فأوّل هذه الشروط الازمة لإجابة الدعاء هو الإيمان بما واستجابة له آمراً وناهياً. ومن الشروط أن تتملك الإنسان الرغبة والطلب الجدي حيث تصبح كل شرائح وجوده وخلاياه معبرة عن طلبه. ومن الشروط الازمة هي الثقة بالاستجابة، وفي الحديث: "إذا دعوت فطن حاجتك بالباب" ومن شروط الاستجابة للدعاء: أن تكون شؤون الداعي كلّها متناغمة مع الدعاء، فالقلب لا بد أن يكون نظيفاً وظاهرًا ولم يسلك لعيشه طرق الحرام ولا يحمل على عاته وزراً ومظلمة لأحد.

وفي الحديث إن رجلاً قال لرسول الله (ص): أحب أن يستجاب دعائي.

فقال (ص): "طهـر قلبك ولا تدخل بطنك الحرام".

وعن الإمام السجاد (ع): "إن الذنب التي ترد الدعاء سوء النية وخبيث السيرة والنفاق مع الإخوان وترك التصديق للإجابة وتأخير الصلوات المفروضات حتى تذهب أوقاتها وترك التقرب إلى الله عزوجل بالبر والمصدقة واستعمال البداء والفحش في القول"، ومن شروط الاستجابة للدعاء أن لا يكتفي بالدعاء وحده لتحقيق المطالب، بل لا بد أن يقرن بالعمل والسعى والجد.

يقول أمير المؤمنين (ع): "الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر" وروي جعفر بن إبراهيم عن أبي عبد الله الصادق (ع):

قال: أربعة لا تستجاب لهم دعوة منهم: رجل جالس في بيته يقول: اللهم ارزقني، فيقال له: ألم آمرك في الطلب.

إن هذه الشروط عندما تكتمل فإن الإجابة ستكون لا محالة، وليس معنى الإجابة كما قد يظن هي تحقيق المطلوب في هذه الحياة ذلك إن البعض من الناس يعرف من حتمية الإجابة هذا المعنى وهذا غير سليم فإن واحدة من صور الإجابة هي تحقيق المطلوب في هذه الحياة وهناك صورتان تضمان إلى هذه الصورة، الأولى تأخير المطلوب إلى الآخرة والثانية هي أن يدفع من السوء مثلها، يقول الحديث الشريف:

"ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا استجلاب إِنْهُمْ لَا أَعْطَاهُمْ الله تعالى بها إِحدى خصال ثلاثة:

-1 إما أن يعجل له دعوته.

-2

وإما أن يؤخرها له في الآخرة.

-3

وإما أن يصرف عنه السوء مثلها.

وحسبنا من الدعاء إنّه يشدنا ويربطنا بربنا وإليه وحسبنا منه إنّه يربينا على المثل والقيم الإلهية أفراداً وجماعات وحسبنا إنّه السلاح الذي يفتقده أعداؤنا حيث يدخلون معنا في معاركهم بغير سند حقيقي يدعمهم.. واستماع إلى هذا العاشق الإلهي العظيم، إلى سيد الساجدين وزين العابدين حيث يقول في واحدة من أدعيته الرائعة:

وسيرنا في أقرب الطرق للوفود عليك

فقد انقطعت إليك همتني

وانصرفت نحوك رغبتي،

فأنت لا غيرك مرادي

ولك لا سواك سهري وسها دي

ولقاوك قرة عيني

ووصلك مني نفسي

وإليك شوقي... وفي محبتك ولهي.

والى هواك صبا بتى...

ورضاك بغيتى...

ورؤيتك حاجتى...

وجوارك طلبي...

وقربك غابة سؤلى...

وفي مناجاتك روحي.. وراحاتي...►

